

مفهوم الحضارة عند ابن خلدون

دراسة تأصيلية تحليلية

The Concept of Civilization for Ibn Khaldun
An Analytical and Authentic Studyالبدالي المترجي¹

جامعة مولاي السلطان بني ملال المغرب

boudali2015@gmail.com

تاريخ الوصول 2020/11/14 القبول 2021/09/21 النشر على الخط 2022/04/15

Received 14/11/2020 Accepted 21/09/2021 Published online 15/04/2022

ملخص:

تهدف هذه الدراسة لتسليط الضوء على مفهوم الحضارة عند ابن خلدون : دراسة تأصيلية تحليلية، واستعرضت بداية مقدمة احتوت على أهمية الموضوع ، وطرح الإشكالية ، كما تطرقت إلى التعريف بابن خلدون من حيث السياق التاريخي له ومفهوم العمران عند ابن خلدون كما بينت الدراسة أيضا منهج علم العمران كما وضحت الدراسة أهمية علم العمران للفقهاء الإسلاميين في فقه الواقع وعلاقة الدولة بالعمران وأطوار الحضارة عند ابن خلدون وفلسفة التاريخ عنده ، ثم ختمتها بأهم النتائج مثل، الدول كالأفراد تخضع لدورة الحياة الفردية نفسها حتى تموت ، والعوامل الجغرافية والبيئية مؤثرة في التاريخ ، وللاقتصاد دور مهم في العمران ، والعرب والإنسانية كلها لا تصلح بغير الدين.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون . الحضارة . العمران . تأصيلية . تحليلية .

Abstract:

This study aims to shed light on Ibn Khaldun's concept of civilization: an analytical rooting study. It reviewed the beginning of an introduction that contained the importance of the topic and posed the problematic. It also touched upon the definition of Ibn Khaldun in terms of his historical context and the concept of urbanism according to Ibn Khaldun. The study also showed the functions of urban science. And the curriculum of the science of urbanism as the study clarified the importance of the science of urbanism to Islamic jurisprudence in the jurisprudence of reality and the relationship of the state to urbanization and the stages of civilization according to Ibn Khaldun and his philosophy of history, and then concluded it with the most important results such as, states as individuals are subject to the same individual life cycle until they die, and geographical and environmental factors influence history, and the economy An important role in urbanism, Arabs and all of humanity is not suitable without religion.

Keywords: Ibn Khaldun, civilization, urbanism, authenticity, analytical.

1. مقدمة:

الحمد لله قيد لهذه الأمة رجالا ينفون عن دينها تحريف الغالبيين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، والصلاة والسلام على من فتح الله به قلوبا غلفا وآذانا صما وأعينا ولم يقبضه الله حتى أقام به الملة العوجاء وترك أمته على المحجة البيضاء ، وعلى آله وصحبه وإخوانه، أما بعد فقد حفظ الله تعالى هذه الأمة في دينها بأن جعل فيها ورثة النبوة يجددون لهذه الأمة أمر الدين كما جاء عن الصادق الأمين: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" ¹. وإن من الخطأ أن نفهم أن التجديد يكون في الأحكام فقط دون غيرها من أبواب الدين، بل يكون حتى في الأخبار وهذا ما قيص الله له الإمام ابن خلدون رحمه الله تعالى يجدد للأمة كتابة التاريخ وتصحيح أحداث التاريخ وأخباره.

أهمية الحضارة في الإسلام :

يعتبر الإسلام أكثر الأديان اهتماما بجوانب الحياة كلها إذ يحث أهله ، على العمل بقطع النظر عن كونه عملا دنيويا أو أخرويا فقال تعالى : " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " ².

ولم يكن الإسلام في يوم من الأيام يدعو إلى العكوف في الأديرة والزوايا في انزال تام عن الدنيا وأهلها كما يتصوره البعض رهبانية وابتدعوها ، بل يعتبر خدمة الدنيا وفق معيار الشرع عبادة لا تقل شأنًا عن الصلاة والصيام ويعدها جزءا من الصلاة التي قال الله فيها : " إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون " ³. إذ المداومة على الصلاة لا تتأتى للعبد وهو مكلف بأمور أخرى إلى جانب الصلاة ، بالإضافة إلى ضروراته وحاجاته المادية ، ليكون المقصود بالدوام في الآية استحضر مراقبة الله في جميع الأعمال يعود نفعها في العاجل أو الآجل .

إذ في حقيقة الدين ليس عند المسلم دين ودنيا بل الدنيا إذ انضبطت بتعاليم الشرع كانت دينا، وعلى هذا الفهم أسست دولة الإسلام منذ الأيام الأولى ، ولم يكن الإسلام يسعى لصلاح الفرد اعتبارا ؛ لأن بصلاح الفرد يصلح المجتمع وتبنى الحضارة . ومن أجل ذلك كرس القرآن في نفوس أتباعه الثقافة الاجتماعية يتجلى ذلك للقارئ في الآيات الأولى حين يفتح كتاب الله تعالى " إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم " ⁴ ، " أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " ⁵ ، يخاطب الأمة بالتعاون على إقامة الدين إذ هو وجب ليس بالإمكان أن يقوم به فرد بل هو واجب الأمة كلها كل من بابها وأن الأمة مهما أكثر عددها لن تقيم الدين الحضاري المنشود وهي مختلفة .

ولأهمية الحضارة في الإسلام لم يكن لدى المسلمين رأي سلمي اتجاه الحضارات الأخرى بل استفادوا وأجدوا منها كل ما يخدم المقصد الأسمى الذي جاء من أجل تحقيقه الدين وهو سعادة الإنسان في الدارين

وقد جعل هذا الأمر كتاب العالم الغربي يقولون : ⁶ إن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات القديمة ، وهما حضارة اليونان والروم ، وأن العقلية العربية قد بدلت الصورة الظاهرة لكل هذه الحضارات وركبتها في أسلوب جديد ، مما جعلها تظهر الصورة مستقلة . ولا يعد هذا مكمنا الضعف في الإسلام وأهله بل هو نقطة القوة إذ لم يكن لدى المسلمين حساسيات اتجاه ثقافات وحضارات الآخرين كما هو عند الآخرين ، فالعقل لمسلم مستعد

¹ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأرمي السجستاني، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت عدد الأجزاء: 4 كتاب الملاحم، باب ما يذكر في القرن المائة، رقم الحديث: 4291.

² التوبة، الآية: 105.

³ المعارج، الآيات: 19-20-21-22-23.

⁴ الفاتحة، الآية: 5-6.

⁵ الشورى، جزء من الآية: 13.

⁶ يحيى بن محمد ، حضارة بين حضارتين (مقارنة بين الحضارة الإسلامية) موقع الويب

دائما لتقبل ما لدى الآخرين ووضعه فيما يتناسب والنظام الإسلامي الخاص بشكل متكامل ، ولا ينقص من الحضارة يتناسب و النظام الإسلامي الخاص بشكل متكامل ، ولا ينقص من الحضارة الإسلامية استفادتها من الحضارات السابقة ، فالتقدم والتطور يبدأ بآخر ما وصل إليه الآخرون ، ثم تضيف الحضارة الجديدة لتكمل ما بدأت الحضارات الأخرى.

مشكلة الدراسة :

ما أهمية الحضارة في الإسلام عموما وعند ابن خلدون على وجه الخصوص؟ وما هو السياق التاريخي الذي عاش فيه والذي جعله يتفطن لما غفل عنه غيره ؟ وكيف تصور ابن خلدون التاريخ ؟ وما مدى تأثير فقهه له في نظريته لل عمران والحضارة ؟

2. المبحث الأول : التعريف بابن خلدون :

1.2 المطلب الأول : السياق التاريخي لابن خلدون.

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون ، ينحدر نسبه من وائل بن حجر صاحب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم بارك في وائل وولده وولد وولد " ¹ عالم من علماء القرن الرابع عشر الميلادي ، السابع الهجري . ²

يعتبر ابن خلدون أول من حاول استخدام العلوم الاجتماعية والسياسية مجتمعة وتسخيرها لدراسة التاريخ حيث درسه دراسة علمية لا تكتفي بسرد الأحداث وتلقيها بكامل التسليم دون تمحيص لولا أن الرجل صنعه التاريخ قبل أن يصنع هو التاريخ ونقحه التاريخ قبل أن ينقح هو التاريخ ، إذ الزمان والتاريخ خير معلم لمن أحسن التلقي عنه ، فالرجل لم يعرف استقرار في جميع مجالات حياته . فمن حيث الوطن لم يستقر في بلد معين طيلة عمره ، بل عاش حياته متنقلا بين تونس التي هي مسقط رأسه ثم بعد ذلك المغرب فالجزائر، فالأندلس ثم الحجاز فبيت المقدس لتنتهي الرحلة بمصر ، مع العلم أنه ينحدر من أصول أندلسية إشبيلية . تعدد مشاريعه العلمية

ساهم تجوال ابن خلدون في تعدد مشاريعه العلمية فأخذ مجموعة من العلوم من شيوخه بتونس الذين هاجر الكثير منهم من الأندلس ، وكان ذلك بعد أن حفظ القرآن على والده صغيرا . وبعد موت والده ومجموعة من شيوخه بسب طاعون عم البلد اضطر إلى الخروج للاستزادة من العلم ، فكانت وجهته المغرب وإلى القرويين على وجه الخصوص فدرس و تنتهي به الأقدار إلى الزيتونة ليكمل رحلته العلمية ثم يساق قدرا لتكون الوجهة في الأخير إلى الأزهر.

. تجاربه السياسية

لم يكن ابن خلدون ذلك الفقيه المنعزل الذي يرى السياسة محظورا لا ينبغي الاقتراب منه ، بل خاص أعمارها وغاص في أغوارها وكانت له تجربة ما يمكن أن نقول فيها أنها لم تعرف استقرارا ، فسرعان ما يكون مستشار أمير ليفاجئنا في لحظة سجين أو فارا من سطوة

¹ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المحقق: علي محمد البجاوي الناشر: دار الجيل، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م 1562/4.

² محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب ، "رحلة ابن خلدون" عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاووت الطنجي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م ص: 27.

أمير ، فكان كاتب مراسلات الوزير تافراكين ، ثم الكاتب الخاص لأبي عنان المريني ، ثم مستشارا للسلطان محمد بن يوسف بن الأحمر غرناطة .¹

. الاستقرار الأسري:

لم يكن الجانب الأسري لابن خلدون إلا مشابها لحياته العامة التي عرفت قلقا واضطرابات أثرت في نفسيته أيما تأثير ، ذلك أن ابن خلدون فقد والديه في طاعون ، وبعد الاستقرار في مصر جاء أولاده وزوجه للاستقرار معه إلى جانبه في مصر وركبوا في سفينة فغرقا بهم في البحر ولم ينج منهم أحد ، مما زاد ابن خلدون حزنا يضاف إلى ذلك الحزن الذي سكن قلبه منذ فراق أبويه .²

2.2 المطلب الثاني : تسارع الأحداث في زمن ابن خلدون

كانت الفترة التي عاش فيها ابن خلدون فترة متسارعة الأحداث حبلت بوقائع وأزمات عانت فيها الأمة كثيرا سواء في المشرق أو المغرب الإسلاميين.

تجلى ذلك بالنسبة للمغرب في سقوط الدولة الموحدية وقيام دويلات صغيرة على أنقاضها:

. دولة المرينين في المغرب الأقصى

. دولة آل عبد الواد في غرب الجزائر .

. دولة الحفصيين في تونس وشرق الجزائر .

وكانت هذه الدول متصارعة تحاول كل واحدة منها إرساء قواعد على أنقاض الدولة الأخرى ، والاستيلاء على مساحات أكبر لتأمين طرقها التجارية .

أما الشرق الإسلامي فليس بأفضل حالا من الغرب إذ عرف هو بدوره هزائم متتالية على يد التتار .

أما الأندلس بلد أجداده فقد شاهدها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة : تسلم أجزاءها للغزاة ويتحالف أمراؤها مع العدو ضد الإخوة في الدين والمعتقد .³

ويمكن القول إن حياة ابن خلدون عرفت مراحل ثلاث كبرى :

. مرحلة النشوء والتكوين والتحصيل قضى هذه المرحلة كلها في تونس ، وقد استغرقت مدة أربع وعشرين سنة .

. مرحلة نضال اجتماعي وسياسي عرف فيها تنقلات بين تونس والمغرب والجزائر والأندلس ، وكان ذلك في حوالي ست وعشرين سنة.

. مرحلة العطاء والاستقرار اشتغل فيها بالتدريس والقضاء وتنقيح كتبه كانت هذه المدة أربع وعشرين سنة غالبيتها في مصر .⁴

لكن دراستنا لابن خلدون هي دراسة تحاول الكشف عن كيفية بنائه للوعي التاريخي الجديد وأثر هذا الوعي في نظريته العمرانية وتصوره للحضارة في أطوارها عنده وخصائص كل طور منها .

¹ - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، دمشق، "الأعلام" دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م 330/3.

² - نفس المصدر والصفحة

³ - المراكشي في المعجب المحقق: الدكتور صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت الطبعة: الأولى، 1426هـ - 2006م ص 77.

⁴ عبد الرحمن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الاشبيلي ، "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" 205/7.

3. المبحث الثاني : فلسفة التاريخ عند ابن خلدون

1.3 المطلب الأول : الفلسفة عند ابن خلدون

تعتبر الفلسفة عند ابن خلدون، واحدة من العلوم التي انتشرت وراجت مع انتشار العمران، بل كثررت وازدهرت في المدن والمناطق الحضرية، وقد جعل ابن خلدون أساس دخول هذا العلم والعمل به، الإلمام بالعلوم الشرعية، لتكون حامية للعقل فلا يضل ولا يتوه في متاهات الأفكار المجردة، فالشَّرع كفيل بأن يرجع العقل إلى البسيط بدلا من المعقد وإلى التجريب بدلا من التجريد¹

جاءت فلسفة التاريخ عند ابن خلدون انطلاقاً من أساسه الفلسفي، فقد تجاوز في تأريخه التاريخ التقليدي بجمع الوقائع العسكرية، والتحولات السياسية التي اعتبرها ظواهر التاريخ، بل قدّمه بصورة جديدة التفت فيها إلى الجوانب الفكرية والاعتقادية، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية باعتبارها تحمل دلالات عدّة باطن التاريخ، راصداً من خلالها جميع العوامل المحركة للحدث التاريخي والمساهمة في صنعه، وكل ذلك من خلال ما وضعه من رؤية نظرية لتفسير التاريخ مستندة إلى عوامل عدة، سمّاها حيناً العصبية الدينية أو القبلية، وحيناً آخر البيئة أي الأثر الجغرافي، مضيئاً إلى ذلك العوامل البيولوجية والاقتصادية. وقد كان لأفكاره في التاريخ تأثيرٌ مباشر وقويّ في يقظة الحضارة الأوروبية، وشمولية نظرتها للتاريخ وتكاملها وامتدادها الزماني والمكاني، فأصبح الأرض التي يجب على الفلسفة الوقوف عليها للنظر إلى جميع مجالات المعرفة.²

لقد اتجه ابن خلدون إلى التاريخ يستفتيه ، يطلب منه الدروس والعبر التي من شأنها أن تساعد على فهم الحاضر ومشاكله ، وأيضاً بسبب دحض لبعض أخطاء المؤرخين وما يعرض لهم من مغالط وأوهام حيث قال : " وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادها فيها على مجرد النقل غثاً أو سمياً لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها على أشباهها ، ولا سبورها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار"³ ، وحدد السبب في ذلك في عوامل من بينها :

- عدم التزامه الموضوعية : سواء من جانب راوي الحادثة المشاهد لها ، أو من طرف ناقل الخبر ، ويرجع ذلك إلى جملة أسباب :
التقرب من أصحاب المراتب بالثناء والمدح.

. وأيضاً لتبرير الإنسان لبعض الأعمال المخالفة للدين والتي لا يقبلها ، كأن يبرر شارب الخمر مثلاً . عمله بقوله : بأن هارون الرشيد خليفة المسلمين كان يفعل ذلك .

-عدم مراعاة قوانين الطبيعة : وذلك كأن ينقل المؤرخ أو الراوي أخباراً عن حوادث مستحيلة الوقوع ، نظراً لكونه قوانين الطبيعة لا تسمح بحدوثها كالحادثة التي نقلها المسعودي عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية ، وكيف اتخذ صندوقاً من زجاج وغاض فيه إلى قاع البحر حتى صورته الدواب الشيطانية التي رآها وعمل على تمثيلها من أجساد معدنية ونصبها جانب البنيان الخرافية المستحيلة من قبل اتخاذ التابوت الزجاجي و مصادمة البحر ولكون الغطس في الماء وداخل صندوق لمدة طويلة يؤدي إلى الاختناق⁴ . والكثير من الحكايات والقصص كالمدينة المسماة " ذات الأبواب " ، " مدينة النحاس " .

. الجهل بطبائع العمران : أي الجهل بطبيعة الظواهر الاجتماعية وكيفية حدوثها وذلك لأن كل حادث من حوادث ذاتا كان أو فعلا ، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وما يعرض له من أحواله ، فكما أن الطبيعة قوانين معينة تسير حوادثها فكذلك العمران البشري أو الإنساني له عوارضه الذاتية

¹ فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، www.alukah.net، اطّلع عليه بتاريخ 2019-07-03. بتصرّف.

² نفس المرجع والصفحة

³ عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر: بيروت-لبنان، 1433-1434، بدون تاريخ، ص: 21.

⁴ نفسه ، ص : 26.

الخاصة به ومن هذه العوارض سنة التطور حيث يقول " فمن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال والأجيال بتبدل العصور ومرور الأيام"¹. إذ لا بد للمؤرخ من مراعاة تغير الأحوال والأخلاق والعادات .

2.3 المطلب الثاني : منهجية ابن خلدون في تفسير التاريخ

ولنا أن نتساءل عن المنهج الذي استند إليه ابن خلدون ، لتأسيس فقه التاريخ نقول إن المنهج الذي اعتمده ابن خلدون في تفسير التاريخ هو المنهج الاستقرائي² القائم على :

. قانون العلية " ربط السبب بالمسبب " : حيث سعى إلى التحقق من وجود ارتباط الظواهر الاجتماعية ، وبالتالي فهو قانون لا يمكن فهم استقرار المجتمع وتطوره بدونه .

. قانون التشابه : حيث اكتشف ابن خلدون أن المجتمعات البشرية تتشابه من بعض الوجوه الاجتماعية ، بسبب الوحدة العقلية للجنس البشري ، ووحدة الأصل الإنساني بالإضافة إلى تقليد الرعية للحاكم ، أو الغالب للمغلوب.

. قانون التباين : حيث يرى ابن خلدون أن المجتمعات ليست متماثلة بصفة مطلقة ، بل توجد بينها فروق يجب أن يلاحظها المؤرخ ، وهي الفروق التي ترجع إلى أسباب جغرافية واقتصادية وسياسية فمجتمع البدو غير مجتمع الحضار ، ومجتمع يقوم على الزراعة وحياة الاستقرار والرخاء غير المجتمع يعاني الفقر .

ويرى ابن خلدون أن المؤرخ الذي يلم هذه القوانين ومؤثراتها يكتسب نوعاً من حسن التقدير ويستطيع معه أن يحكم على الوقائع التاريخية ، ويستطيع بالأخص تمييز الحقيقة من الخطأ³ .

وبهذا المنطق استطاع ابن خلدون أن يتوصل إلى أن التاريخ تحكمه محددات وضوابط وأنه خاضع لمنهج سني ، ولا شك ولا ريب أن ابن خلدون قد تأثر في ذلك بالمنهج القرآني وهذا ما نلاحظه في القرآن الكريم الذي ينبه إلى حقيقة مفادها أن الساحة التاريخية عامرة بسنن كما عمرت كل الساحات الكونية الأخرى⁴ .

قال تعالى : " قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين"⁵.

وهي آية تؤكد على ضرورة التتبع لأحداث التاريخ من أجل اكتشاف هذه السنن ومن تم الاعتبار بها وهناك آيات أخرى حثت على الاستقراء والنظر والتدبر في الوقائع والأحداث التاريخية من أجل تكوين نظرة استقرائية ، من أجل الخروج بنواميس وسنن كونية للساحة التاريخية .

قال تعالى : " أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق"⁶ .

وقال تعالى : "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص) ، (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"⁷. وفي مجموع هذه الآيات الكريمة يتبلور المفهوم القرآني الذي أوضحناها وهو التأكيد أن الساحة التاريخية لها سنن وضوابط .

¹ نفسه ص : 26

² ولا ننسى انه دارس للعلوم الشرعية الشيء الذي جعله على اطلاع بمنهج علماء الحديث في الجرح والتعديل أيضا

³ طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية. ترجمة: محمد عبد الله عنان، الاعتماد، للنشر، الطبعة الأولى، 1343هـ، ص: 46.

⁴ السيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، دار التعارف للمطبوعات، بدون طبعة: 1989م، ص: 62.

⁵ سورة: آل عمران، الآية: 137.

⁶ سورة: غافر، الآية: 21.

⁷ سورة: ق، الآية: 36-37.

وهذا الفتح القرآني الجليل ، هو الذي مهد إلى تنبيه الفكر البشري بعد ذلك بقرون ، إلى أن تجري محاولات لفهم التاريخ فهما علميا ، بعد نزول القرآن الكريم بثمانية قرون ، بدأت هذه المحاولات على أيدي المسلمين أنفسهم ، فقام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف قوانينه وسننه ، ثم بعد ذلك بأربعة قرون اتجه الفكر الأوروبي في بداية ما يسمى بعصر النهضة ، نحو تجسيد هذا المفهوم الذي ضيعه المسلمون ، حيث لم يتوغلوا إلى أعماقه ، وبدأت لدى الغربيين أبحاث متعددة ومتنوعة حول فهم التاريخ ، ونشأت على هذا الأساس اتجاهات مثالية ومادية ومتوسطة .

وفي إطار الحديث عن الفلسفة الخلدونية للتاريخ وأثرها في بناء الحضارات وتشبيدها وأيضا في إسقاطها وانحطاطها على اعتبار أن هناك سنن وهناك قوانين تتحكم في دواليب التاريخ لكن لا بد من التفريق بين نوعين من السنن فهناك سنن كلية ، وأخرى جزئية :

- السنن الكلية : وهي السنن التي جعلها الله مفتاحا لقيام الحضارات بمفهومها الشامل وهذا ينطبق على سنة الإيمان والتقوى ، قال تعالى : "ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون"¹.

- السنن الجزئية : وهي السنن التي تتميز بالحيادية وهي التي تخدم كل من احترامها ووظيفتها وهذا النوع من السنن هو الذي جعله الله عاما ينطبق على الانسان بغض النظر عن عقيدته ولونه وعرقه مصدقا لقوله : "كلا نمد هؤلاء

و هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا"².

إلا أنه يجب التأكيد على أنه لا غنى للسنن الكلية عن السنن الجزئية ولا الجزئية عن الكلية ، فحضارة تؤمن بالله لكنها لا تكتشف سنن الآفاق والأنفس ((السنن الجزئية)) هي حضارة عطلت .

وحضارة تستنطق السنن الجزئية يوما بعد يوم كالحضارة الغربية اليوم دون أن تهتدي الى إيمان صحيح هي حضارة تائهة او بالأحرى ضارة لنفسها ونافعة لغيرها عند اكتشافها لسنن الرقي المادي.

والذي يتبدى لنا أن المشروع الخلدوني مشروع قائم على منهج عقلي حسي يحاول معرفة قوانين التاريخ اعتمادا على بدهة العقل في رؤية الوقائع التاريخية دون الاعتماد على الشواهد النقلية إلا في النادر لذلك كان ابن خلدون أكثر نظيرا من الناحية وصف الظواهر الاجتماعية وتحويلها إلى قانون تاريخي وبهذا تصبح الرؤية واضحة جدا في أن التاريخ ليس مجرد حوادث تتعاقب في الزمان دون خضوع لعوامل معينة ، بل هناك خيوط تنتظم هذا التعاقب وتوابع توجه مساره و مجراه فكما أن الحوادث الطبيعية تجري وفق قوانين معينة فكذلك الوقائع الاجتماعية والتاريخية وبعبارة ابن خلدون ((أحوال العمران لها طبائع خاصة بها))³.

وبهذا تصبح فلسفة ابن خلدون التاريخية ذات تأثير كبير في تفسيره لنظريته في العمران وأيضا عند معرض حديثه عن الحضارة وأطوارها .

4. المبحث الثالث: مفهوم العمران عند ابن خلدون.

1.4 المطلب الأول : تعريف العمران.

تردد مصطلح العمران في كتاب المقدمة لابن خلدون مرات عديدة ، ولا يكاد يخلو فصل من فصول كتابه من ذكره سواء لفظا أو إشارة . ولعل هذا التكرار يبين مدى اهتمام ابن خلدون بهذا المفهوم وأثره في بناء الحضارة ، حيث إنه يعتبر من الأوائل الذين حاولوا العناية بدراسة الرؤية الكونية التوحيدية وأثرها في صياغة علم العمران البشري ، الذي يعد إحياءه مطلبا علميا ودينيا وحضاريا .

¹ - سورة: الأعراف، الآية: 96.

² - سورة: الإسراء، الآية: 20.

³ - علي بن نايف الشحود ، الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، ص: 60.

بعد أن عنون ابن خلدون الباب الأول من مقدمته بـ "ال عمران البشري على الجملة"¹، فقد قسم هذا الباب بدوره إلى ست مقدمات، أكد في الأولى على أن الاجتماع الإنساني ضروري، والثانية والثالثة والرابعة والخامسة، في قسط العمران من الأرض، وفي الأقاليم، وتأثير الهواء في ألوان البشر وأخلاقهم، وشؤون معاشهم. والسادسة، في الوحي والرؤيا، وفي أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة، وفي حقيقة النبوة والكهانة والعرافة .

ومفهوم العمران في الفكر الخلدوني ليس من جنس المفاهيم البسيطة، بل هو مركب ذو معان متداخلة، تحددها مستويات مختلفة. إذ ارتبط هذا المفهوم بمجموعة من القضايا الإيجابية والسلبية، أما الإيجابية فهي التي تعبر عن الطبائع مثل الاستخلاف والتمدن، والكسب، والحضارة وغيرها، وأما السلبية فمثل التناقض، والخراب، والفساد، والترف، وغيرها.

ولقد تحدث ابن خلدون في بيانه لمفهوم العمران عن ثلاثة أنماط من التجمعات البشرية: التجمع الطبيعي، والبدوي، والحضري²، وربط بينها بروابط شبه ضرورية تحددها الأسبقية بينها، كما هو واضح في تفسيره لنشأة الملك وتأسيس الدولة بوصفها كيانا سياسيا .

وظائف علم العمران :

ذكر المؤلف عددا من الوظائف: الأولى أصولية، وذلك بالنظر إلى المكانة التي يحتلها علم التاريخ في عصره، وهو ما يمكن وصفه بأنه مركز المعلومات التي تغطي حياة الأفراد وأحوالهم، وهي تؤدي إلى جمع أشقات العلوم وبناء علاقات استدلالية لخدمة الفكر وتنمية قدراته، أما الثانية فتعمل على تنظيم المعارف المختلفة تحت إطار نظري يؤدي علم العمران فيه دور الناظم، والثالثة عقدية، وهي تمثل النور الخفي الذي صاحب ابن خلدون في بحثه وتفكيره، وتحمل القيم والتصورات الإسلامية، وما قدمه من تفسيرات حول الإنسان والعمران، والرابعة عمرانية، ذلك أن علم العمران الخلدوني علم علمي، يتوجه إلى الواقع الذي يعيشه المسلم ليغيره وفق مبادئ الوحي اليقينية.³

2.4 المطلب الثاني : منهج علم العمران

كان ابن خلدون ملما بأهمية الشروط الضرورية لتشكيل الأساس الأول لبناء علم العمران، وكانت أولى خطوات تحقيق ذلك هي تحديد الأولويات التي يقوم عليها هذا العلم، منها (الإنسان كائن اجتماعي بالطبع) و(الاجتماع الإنساني ضروري)، ثم تأكيد مرارا على ضرورة ربط هذه المقدمات بجذورها الدينية، فالله سبحانه هو الذي حدد فيها السنن التي تسير حياة الإنسان.

أشار ابن خلدون إلى مسلمة معروفة لدى الحكماء والفلاسفة من قبله، وهي أن الإنسان مدني بالطبع، وأن الاجتماع الإنساني ضروري، وفسر ذلك من خلال الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي من مبادئها الحاجة إلى الغذاء، وإلى دور الإنسان في ظل قوانين العمران من خلال التعرف إلى الطبائع والأحوال، ومحاولة التأثير في تلك الأحوال.

¹ ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص 137.

² ذ. صالح بن طاهر مشوش، "علم العمران الخلدوني وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته، دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون" ص: 132.

³ - عبد الله عطا محمد عمر، قراءة في كتاب علم العمران الخلدوني لتأليف صالح طاهر مشوش، ص: 152

وتعتبر العصبية في خطاب ابن خلدون، من أهم المفاهيم التي اعتمد عليها في تفسير حركة المجتمع وانتقاله من نمط بدوي إلى حضري، كما أنه اعترف للعرف بأثره الكبير في تشكيل الوعي والسلوك الإنساني، حيث كان اهتمام ابن خلدون بالعرف موجهاً إلى تحليل بعض الجوانب النفسية والاجتماعية في نشأة هذه الظاهرة وتطورها، ومن هنا فإن علاقة النفس بالعادة عند ابن خلدون ليست منحصرة في الأفعال التي تغلب عليها صيغة اللاشعوري التي تتحول إلى أعمال آلية، وتمتد إلى عمليات معقدة تتطلب درجة عالية في تعلم الصناعات واكتساب الخبرات والملكات المختلفة التي يحتاج إليها الناس، وفي هذا الجانب يقول ابن خلدون: "إن العوائد تغلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه".¹

أهمية علم العمران للفقهاء الإسلامي في فقه الواقع:

يعد فهم الواقع نافذة تساعد على تحقيق مقاصد الوحي، وهو أمر ضروري يلزم عنه ضرورة النظر في توافق العرف مع الشرع أو مخالفته، وذلك لأن مصادر الوحي تتوافر فيها الأدلة والقواعد والأحكام اللازمة والشروط العلمية والمبادئ الأصولية التي تمكن الفقيه من التمييز بين العرف المعترف شرعاً وغيره.

وفي مجال تطهير المجتمع المسلم من الأعراف الفاسدة ركز ابن خلدون على محورين، هما: فطرة الإنسان، وطبيعة العمران، ومن خلالهما فإن علم العمران مؤهل لتقديم خدمات معرفية لتلك الأصول.

يقول ابن خلدون في مقدمته في سياق تشديده على ضرورة وجود نظام حاكم سماه "الملك" للكمال والحفاظ على العمران:² "ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرناه وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدو عنهم، لأنها موجودة لجميعهم. فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم. فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك. وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للإنسان طبيعة ولا بد لهم منها. وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرىء فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجسمانه، إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة: "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".³

ومن خلال تقصي كيفية تناول ابن خلدون لمفهوم العمران يتضح جلياً ما يلي:

تقسيمه العمران إلى بدوي وحضري وبشري .

ارتكازه على مفهوم العصبية الذي يجعل الاجتماع البشري ممكناً، وبالتالي قيام العمران.

¹ - إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر - العدد 76، ص: 159 .

² ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص 139.

³ سورة طه الآية: 50

لقد جعل ابن خلدون علم العمران ، أو رصد التاريخ الاجتماعي ، الوظيفة الأساس للمؤرخين ، وأقام بذلك روابط متينة بين التاريخ وعلم الاجتماع ، مؤكداً على التأثير المتبادل والقوي بين العلمين . ولذلك رفض اتباع الطريقة الوصفية التاريخية الخاصة التي لا عمل لها إلا وصف الظواهر الاجتماعية وما كانت عليه ، دون استخلاص النتائج فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها . كما أنه رفض اعتماد الطريقة الوعظية الإرشادية المباشرة التي تحث على التمسك بالمبادئ التي تقررها نظم المجتمع . بالإضافة إلى رفضه الاتجاه الفكري الذي يتحدث فيما ينبغي أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية طبقاً للمنظور الذي ينظر من خلاله إلى المجتمع . فهو يرصد تاريخ المجتمعات بطريقة علمية تكشف قوانين حركتها الداخلية ، التي تسير بدورها في نشأتها وتطورها حسب قوانين ثابتة ومطرودة

علاقة الدولة بالعمران :

تشكل الدولة في المتن الخلدوني حاضنة العمران ومستقرة ، فهي المحور الذي يدور حوله الاجتماع البشري ، وينتظم في نطاقه مقصد الاستخلاف وعمارة الأرض . وبحسب الدولة على هذه الدرجة من الأهمية ، فقد خصها ابن خلدون بفصول كثيرة في نص المقدمة . فمن جهة ، انتقد صاحبها المؤرخين القدامى الذين اكتفوا بتدوين أخبار الدول دون التساؤل عن أصولها : كيف تنشأ ، وتزدهر ، وتصاب بالهرم ، والوهن ، والانقراض ؟ ومن جهة أخرى ، اعتبر الدولة مقومة للعمران ، وحافطة لوجوده ، فهي " السوق الأعظم ، أم الأسواق كلها " ، بل إنها والسلطان " سوق العالم ، تجلب إليه بضائع العلوم والصنائع ، وتلتبس فيه طوال الحكم ... وما نفق فيها نفق عند الكافة . لذلك ، يرتبط ازدهار العمران ، ونمائه ، وإثماره المقاصد المرجوة منه (الاستخلاف وعمارة الأرض) ، بوجود الدولة ، وديمومتها ، وتأكيدها لهذا يقول ابن خلدون : " الحضارة في الأمصار من قبل الدولة ، وأنها ترسيخ لاتصال الدولة ورسوخها . غير أن الدولة عند صاحب المقدمة لا يمكن تصورها فكرة ووجوداً بدون عصبية . لذلك اعتبرها " الامتداد المكاني والزمني لحكم عصبية ما " .

وتعد فلسفة المنهج الخلدوني في علم العمران خطاباً مركباً من أبعاد متداخلة يصعب تحديد معالمها ، مما جعل المسألة مستعصية في نظر كثير من الباحثين ، وذلك لأنها ترجع إلى عاملين أساسيين هما : طبيعة نصوصه المفتوحة ، ثم الإضافات الذاتية التي يحاول كل باحث إدراجها ضمن معتقداته الفكرية ، وهو ما جعل بعض الباحثين يخوضون في متاهات الغموض والتحريف ، خاصة في تحديد طبيعة منهج ابن خلدون ودور الدين فيه ، وأثره في صياغة الفروض والتصورات العملية . وقد اختلفت رؤى الباحثين في سبيل تبين العلاقة بين منهجية علم العمران والمناهج المعروفة في الفلسفة والعلوم الطبيعية ، فاهتم بعضهم بخمسة مجالات ، هي : العمران البدوي ، والعمران الحضري ، والدولة والمدنية ، والحياة الاقتصادية ، والعلوم¹ .

5. المبحث الثالث: أطوار الحضارة عند ابن خلدون

1.5 المطلب الأول : مرحلة التكوين

للتحديث عن أطوار الحضارة عند ابن خلدون لابد أن نشير إلى المراحل التي تمر منها الدولة عند ابن خلدون ، فالدولة عنده تمر من مراحل شتى وكانت المرحلة الأولى عنده هي مرحلة التكوين .

التي عبر عنها ابن خلدون بقوله : " الدولة العامة تحصل بالقبيلة² والعصبية " .

¹ - إسلامية المعرفة : مجلة الفكر الإسلامي المعاصر - العدد 76 ، ص : 150 .

² ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص 156 .

"إن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتدامر"، ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً¹، من كلام ابن خلدون يمكن القول إن الملك والعصبية أمران مهمان في المرحلة في تكوين الدولة ويكمن دورهما في كون العصبية تمكن من غلبة طرف على آخر، والملك لا يتم إلا بعد استسلام طرف المغلوب للطرف الغالب يقول "وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا أغلب عليه"²

والطور الثاني في هذه المرحلة يكمن في تخلص الدولة من العصبية لكن شريطة أن تستقر حيث إن الدولة لا يمكن أن تتلخص من العصبية إلا إذا تمهدت واستقرت ويبدو هذا واضحاً في قول العلامة ابن خلدون "إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية"³، والسبب في ذلك يقول ابن خلدون "إن الدولة العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها بقوة قوية من العلب للغرابة وإن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحد بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة".

هكذا بين ابن خلدون أنه بمجرد الاستقرار للدولة يصبح الخضوع لها كأنه طاعة كتاب الله لا بيدل ولا يعلم خلافه"⁴ تم بعد هذا يستحضر ابن خلدون الدين كأحد الركائز في الحضارات والدول، حيث اعتبر الدين أصل الدولة إما من نبوة أو دعوة حق ويستحضر هنا ما ذكرناه آنفاً في كون الملك يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه قال تعالى "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما الفت بين قلوبهم" سورة التوبة ويسر أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرف إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاقد واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعضمت الدولة،⁵

وهنا يمزج ابن خلدون بين قوة الدعوة الدينية وقوة العصبية مما يزيد للدولة قوة على قوة والسبب في ذلك كما يقول ابن خلدون "إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوي عندهم" وأعطى مثالا بالعرب صدر "الإسلام في الفتوحات"⁶

وأشار إلى أمر مهم هنا وهو: مركز الدولة ودوره في استمرار قوة الدولة حيث اعتبره بمثابة القلب الذي تنبعث منه الروح فإذا غلب القلب وملك انخرم جميع الأطراف"، وأعطى مثالا بالدولة الفارسية يقول كان مركزها المدائن، فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع، ولم ينفع يزدجرد ما بقي بيده من أطراف ممالكه، كما ضرب عكس ذلك الدولة الرومية بالشام، لما كان

¹ نفسه ص : 156

² نفسه ص : 156

³ نفسه ص : 156

⁴ المرجع نفسه ص 158

⁵ ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت -

لبنان-ص 159.

⁶ المرجع نفسه، ص 160.

مركزها القسطنطينية ،وغلبيهم المسلمون بالشام تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية، ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم ، فلم يزل ملكهم متصلا بها إلى أن تؤذن الله بانقراضه.¹

وكل ما ذكرناه سابقا يمكن أن نجعله في مرحلة النشأة.

2.5 المطلب الثاني : مرحلة الازدهار

الآن ننتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل تكوين الحضارة وهي :

المرحلة الثانية: مرحلة الازدهار والعيش في الترف يقول وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملك ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياسها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزيته ويذهبون إلى إتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير لتلك النوافل وضرورية في تحصيلها، وينزعون من ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفردوس والآنية ، ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم، في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفارة وينبغي خلفهم من ذلك سلفهم إلى آخر الدولة. وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك، وترفعهم فيه، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن يبلغها بحسب قوتها وعوائدها من قبلها².

فأهم ما يميز هذه المرحلة حسب ابن خلدون هو العيش في الترف في المأكل والمشرب والملابس بأشكالها المتنوعة.

3.5 المطلب الثالث : مرحلة الانهيار.

وهي مرحلة متعلقة بالمرحلة الماضية لأن الانهيار له أسباب كما للازدهار أسباب إلا أن الغريب هو أن الازدهار هو السبب الرئيسي في انهيار الحضارة وبيان ذلك من أوجه كما بين ابن خلدون ذلك .

الوجه الأول : أنها تقتضي الانفراد بالمجد ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم له واحدا، كانت همهم في التغلب على الغير والذب عن الحوار (الدفاع عن الناحية) أسوة في طموحها وقوة شكائهم ، وممرهم إلى العز جميعا، وهو يستطيعون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم. وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبتهم وكبح من أعتهم، واستأثر بالأموال دونهم فتكاسلوا عن الغزو وفشل ريحهم ورموا المذلة والاستبعاد . ثم ربي الجيل الثالث منهم على ذلك، يحسبون ما ينالهم من العطاء أجرا من السلطان لهم على الحماية والمعونة، لا يجري في عقولهم سواه، وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت، فيصير ذلك وهنا في الدولة وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب اليأس من أهلها.

الوجه الثاني : إن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم ، ولا يفي دخلهم بخرجهم ، فالفقير منهم ، يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم³ المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحرب، فلا يجدون وليجة عنها فيقعون بهم في العقوبات، وينزعون

¹ نفسه ، ص : 148.

² ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت - لبنان- المرجع نفسه ، ص 169.

³ المرجع نفسه ص 169-170.

ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم، فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم، وتسقط الدولة.

الوجه الثالث: إن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه، وإذا اتخذوا الدعة والراحة مؤلفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شان العوائد كلها وإيلافها، فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة، وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس و ركوب البيداء وهداية الفقر... فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتنخضد شوكتهم ويعود بذلك على الدولة بما تلبس به من أسباب الهرم ولا يزالون على ذلك حتى يعودوا عيالا على حامية أخرى إن كانت لهم، حتى تسقط دولتهم. وهنا يميز ابن خلدون بين أجيال ثلاثة تعتبر المكونات الأساسية التي تمر منها الدولة:

الجيل الأول: من خلقهم البداوة وخشونتها وتوحشها من شطف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد.

الجيل الثاني: تحول حالهم من الملك والترفة من البداوة إلى الحضارة ولشطف إلى الترف والخصب .

الجيل الثالث: ينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن يقول: فهذه كما نراها ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها وشبه عمر الدولة بعمر رجل لأنها تمر بمراحل معينة مثل الإنسان، نشير هنا إلى أطوار الدولة كما أشار إليها ابن خلدون يقول: وحالات الدولة وأطوارها لا تتعدى في الغالب خمسة أطوار.

6. الجدول :

وحالة الدولة وأطوارها لا تتعدى في الغالب خمسة أطوار ، وهي مرسومة في هذا الجدول :

الطور الاول	الظفر بالبغية وغلب المدافع والاستيلاء على الملك	العصبية
الطور الثاني	صور الاستبداد على القوم	لجذع أنوف أهل العصبية
الطور الثالث	الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك	تحصيل المال وتخليد الآثار
الطور الرابع	القنوع والمسألة ويكون صاحب الدولة في هذا قنوعا	الكل مستقل برأيه
الطور الخامس	الإسراف والتبذير	الشهوات والملاذ

ويمكن أن نجمل ذلك فيما يلي كما أشار إلى ذلك ابن خلدون :

- الانهيار نهاية التحضر حين يصل الكل إلى الانغماس في الترف.
- التحضر : هذا الطور يقوم على الدين والعصبية = الاستقرار في المدن التمكن من العلوم والصناعات .
- البداوة = العيش في البداوة ، في الصحاري والبربر في الجبال والتتار في السهول .

7. خاتمة:

وانطلاقا مما سبق يمكن القول بأن ابن خلدون في تنظيره للحضارة أشار إلى قوانين لا بد منها لتكوين حضارة .

- التطور التاريخي يخضع للدفاع والصراع والتفاعل .

- العصبية الدينية والقبلية لها دور أساسي في بناء الدولة .

- الحضارة كالكائن البشري في تطوره .

- الدول كالأفراد تخضع لدورة الحياة الفردية نفسها حتى تموت .

- العوامل الجغرافية والبيئية مؤثرة في التاريخ .

- للاقتصاد دور مهم في العمران .

- العرب والإنسانية كلها لا تصلح بغير الدين .

نقد وتقويم :

يقول مالك بن نبي: إن ابن خلدون في حديثه عن أطوار الحضارة يخلط بين الظاهرة الحضارية التي عامة وظاهرة الدولة التي هي خاصة¹. كما يواجه مالك نقدا لاعتبار العامل الجغرافي هو الأساس في تكوين الحضارة حيث قدم نموذج الحضارة المصرية باعتبارها حضارة قامت على الاختيار الحر².

زعم الكثير من الباحثين المعاصرين أن ابن خلدون هو أول من مارس محاولة لدراسة التاريخ دراسة موضوعية وأنه لا توجد قبله أية محاولة في هذا المجال ومن العجب أن ابن خلدون نفسه وقع في نفس الخطأ ذاته عندما أكد في مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال وكان الأحرى به أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق.

8. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم
- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأردني السجستاني، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت عدد الأجزاء: 4 كتاب الملاحم، باب ما يذكر في القرن المائة، رقم الحديث: 4291.
- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المحقق: علي محمد البجاوي الناشر: دار الجليل، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م 1562/4.
- محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب، "رحلة ابن خلدون" عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م ص: 27.
- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، "الأعلام" دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م 330/3.
- عبد الرحمن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الاشبيلي، "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" 205/7.

¹ ذ. سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، ص: 299.

² نفس المرجع والصفحة

- فلسفة التاريخ عند ابن خلدون"، www.alukah.net، اطّلع عليه بتاريخ 03-07-2019. بتصرّف.
- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر: بيروت-لبنان، 1433-1434، بدون تاريخ، ص:21.
- طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية. ترجمة: محمد عبد الله عنان، الاعتماد، للنشر، الطبعة الأولى، 1343هـ، ص:46.
- السيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، دار التعارف للمطبوعات، بدون طبعة: 1989م، ص:62.
- ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت -لبنان- ص137.
- ذ.صالح بن طاهر مشوش، "علم العمران الخلدوني واثـر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته، دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون" ص: 132.
- ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت -لبنان- ص 139.
- ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت -لبنان- ص 156.
- ابن خلدون مقدمة العلامة المسمى ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الطباعة للنشر والتوزيع بيروت -لبنان- ص159.
- ذ.سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي :دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر ، ص : 299.